جامعة المنصورة
كلية التربية

مكة المكرمة بوصفها مكاناً استثنائيا
-قراءة في سرديةِ أدب الرِّحلة-

إعداد

د/ نايف بن رشدان بن عتيق الهجلة

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، تخصص أدب ونقد
كلية العلوم والدراسات الإنسانية- حريملاء
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مجلة كلية التربية – جامعة المنصورة
العدد ١٢٠ – أكتوبر ٢٠٢٢

مكة المكرمة بوصفها مكانًا استثنائيا
ـقراءة في سرديةِ أدب الرِّحلةـ

د / نايف بن رشدان بن عتيق الهجلة
أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، تخصص أدب ونقد
كلية العلوم والدراسات الإنسانية- حريملاء
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الملخص:

تحاول هذه الورقة أن تجيب عن سؤال القصة في البناء السردي السِّيري الذي يتمحور حول «أدب الرحلة إلى مكة المكرمة»، وذلك من خلال كتابات ونصوص الرحالة من الأدباء والمفكرين، ولأجل ذلك استثمرنا مقولات التحليل السردي القصصي كما طوَّره «فلاديمير بروب»، و«ألغيرداس كريماس»، لاستكشاف الخصائص الدّلالية للنّص، وصيغ تصويره الوصفي للمكان موضوع التحليل. ومنه فقد تبيّن أن نصوص العيّنة قد تقاطعت في أحداث متقاربة متعلّقة بالقيم الدّينية والتاريخية للمكان، ومن فرادة الموضوع اكتسبت هذه العيّنة مزيتها الفنية وبعدها الأدبي.

الكلمات المفتاحية: *السرديات، أدب الرحلة، البناء السردي، مكة المكرمة.*

Abstract:

The paper answers the question of the story in the biographical narrative construction that revolves around the literature of the journey to Mecca, through the writings and texts of literary trips, and for that we have invested the sayings of narrative analysis as developed by «Vladimir Propp» and «Algirdas Cremas», to explore the semantic characteristics of the text, and its descriptive depiction of the place. topic of analysis. From it, it was found that the sample texts intersected in close events related to the religious and historical value of the place, and from the uniqueness of the subject this sample acquired its artistic merit and literary dimension.

Keywords: narratives, travel literature, narrative construction, Makkah Al-Mukarramah.

المقدمة:

إذا كانت الأمكنة في أدب الرحلات هي المادة المعين للكتابة، فإن مكة المكرمة من بين الأماكن القليلة تستمد مادتها من الروحانية الدينية؛ إذ تشكل معنى فريدًا لا يبلغه إلا من ثقف قيمة مكة، وهي تمثّل سرًّا وحيدًا لا يدركه إلا من غمر قلمه في مداد وجدانه الـديني، وعمـر قلبـه بذاكرة التأريخ المجيد.

وهي من البقاع التي يبتهل الناس في صلواتهم طالبين أن يكتب الله لهم زيارتهـا ولـو مرةً، وهي المكان الوحيد في العالم الذي تعد زيارته فرض عينٍ على القادر عليه.

لذلك كانت الكتابة عنها عند من زارها من الكتاب تصدر عن عاطفة مفعمة بالـصدق؛ تشكل تجربة مختلفة وتحفر في القلب أخاديد من المواقف العابقة، وتظل ذاكـرة مطبوعـة فـي شغاف القلب؛ فكانت تلك الصفحات حول تلك الرحلات مشوقة، وبوابة للدخول في الشراكة مـع الكاتب في الإحساس الجمعي بذلك المكان الفريد.

التمهيد:

لا يمكنك أن تحيط –في بحث محدد وصفحات مقننة– بكل من كتبوا فـي أدب الرحلـة إلى مكة؛ فرأينا أن ننتقي من كل جيل كاتبًا منذ عهد الملك عبد العزيز إلى عهد الملك عبد الله – رحمهما الله– حيث كانت بنت الشاطئ آخر أجيال الكتابة التي توقفنا لديها، ولعـل هـذا البحـث يكون نواة لعمل أكبر يجمع ما قيل في مكة وعنها؛ ليكون مرجعا في المكتبة الأدبية والتاريخيـة والاجتماعية.

أهمية البحث وأسباب اختياره:

كانت مكّة المكرمة ولا تزال موضوعًا حيويا للدراسات والبحوث باختلاف ميادينها؛ من التاريخ والأدب وغيرهما، غير أنَّ هذه الدِّراسة حول مكة تتجه إلى زاويةٍ –أو لنقل– تتركب من زاويتين من البحث؛ تحوم الأولى حول أدب الرحلة إلى مكة، والرحلة إلى مكة رحلةٌ خاصة بمـا تحمل لفظة «خاصة» من معاني التفرُّد. كما تتعلق الأخرى بوجدان الزائر المرتحل إلى مكـة – خاصة في أشهر الحج– وتكبر قيمة القلم إذا كان الزائر أديبًا.

أما عن أسباب اختياري للموضوع؛ فلأن الدراسات تكثر في الآونة الأخيرة حول علاقة الإنسان من شاعر وأديب بالأماكن والأوطان، وتخلو المكتبة العربية من هذا النوع من الدراسات فيما يتعلق بمكة، وهي أحق بأن تتناول من هذه الزاوية؛ فمكة بحقٍّ مكان استثنائي، والعلاقة معها –زيارةً أو كتابة– علاقة استثنائية.

الصعوبات التي واجهتها الدراسة:

من تلك الصعوبات كثرة المكتوب مما لا يخدم فكرة البحث، وصغر البحث عن موضوعه؛ فنسأل المولى العلي أن يقدرنا على تتمة هذا العمل في كتاب موسع، أو يقيض من يتصدى لهذا المشروع الكبير.

قيمة الدراسة:

تحاول هذه الدراسة أن تكشف عن البنيات السردية التي تشكّل الهوية السِّيرية فيما كتب حول أدب الرحلة إلى مكة، مُستندين –في ذلك– على عيّنات نصيّة تشترك في بُعدين:

الأول – أدبي: وهو ذلك المتّصل بخصائص النّص الفنّية التي يقوم عليها بناء النّص (صنعَة السّرد).

الثاني – موضوعاتي: أي المتعلِّق بالمقومات الدّلالية التي تشترك في المكان الشريف موضوع الدّراسة.

وبناء عليهما، سنستعمِلُ السردية بوصفها مجموع البنيات السردية (المحكي) التي تكون النّص السردي، بالتركيز على عنصري الخطاب والقصة، وسيتم التركيز على السردية الدّلالية؛ وذلك نظرا لاتصالها بموضوع السّرد الذي هو (مكة المكرّمة)، مع استثمار آليتي الوصف والحكي، وإذا كان عنصر المكان في السرديات محوريًّا، فإن قيمته تزداد عندما تكون ثيمته متعلِّقةً بالمقدّس الذي هو مكة المكرّمة.

فما أهم القيم السردية التي تميّز موضوع الرّحلات إلى مكة المكرمة؟ وما هي خصائصها التركيبية والدِّلالية ضمن دوائر التحليل السردي؟

توصلا للإجابة عن هذا السؤال، قمت بتقسيم هذا البحث إلى مقدمة؛ هي هذه، وثلاثة مباحث وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

- **المقدمة: وفيها خلاصة البحث**

والتمهيد وفيه: أهمية البحث، وأسباب اختياره، والصعوبات التي واجهتها الدراسة.

- **المبحث الأول: في الوجدان الديني لكاتب الرحلة**
- **المبحث الثاني: المواقف الشخصية التي سجلها كاتب الرحلة**
- **المبحث الثالث: المواقف الطريفة لكتاب الرحلات**
- **الخاتمة؛ بأهم النتائج والتوصيات**

المبحث الأول: في الوجدان الديني لكاتب الرحلة

مكة –كما هو معلوم– هي القلب النابض في جسد الأمة المسلمة؛ فمئات الملايين من المسلمين تهفو قلوبهم إليها، يحدوهم الحنين إلى زيارة مهبط الوحي وقبلة المسلمين التي يتوجهون شَطرها خمس مرات كل يوم في أرض الله، فكل إقامةٍ للصلاة تذكرهم بالكعبة المشرفة، ذلك البيت العتيق الذي تهوي إليه أفئدة المؤمنين جميعا امتثالا لأمر الله عز وجل في أداء فريضة الحج، وإتمام ركن الإسلام الخامس، وبذلك فإن «الرحلات إلى مكة تكتسب خصوصية متميزة لكونها العاصمة المقدسة التي لها منزلة خاصة عند جميع المسلمين في كل أصقاع الأرض، فيتشوق كل مسلم إلى معرفة كل ما فيها وما يدور فيها، وما تسجله عنها من انطباعات ومشاعر تترجم ما يختزنه وجدانه من أحاسيسه بالإضافة إلى أن هذه الرحلات تغري الآخرين بالتعرف على سر تعلق المسلمين بهذه البقعة المباركة»[1].

كان التعبير العاطفي عن ذلك الشوق صادقًا عند كثير من الكتاب، وبخاصة عند العزم على أداء فريضة الحج؛ إذ إن ذلك الحدث العظيم في حياة كل مسلم يبعث في نفسه شعورا عميقا بالهيبة والرهبة؛ قلما يستطيع أحد أن يعبر عنه في كلمات، فهناك من يعبر عنه بالدموع وينتهي الأمر، وبعضهم يكبت أشواقه في نفسه، فتنعكس في تصرفاته وأفعاله، فتتملكه مشاعر بهيبة لا يعادلها شيء، وبعضهم أوتي حظًّا من البيان متمكن من التعبير عن تلك المشاعر والوجدانات بقصيدة بليغة أو بأدب نثري مثلما يحدث في (أدب الرحلات)، أو بكتاب عن سيرته الذاتية، تحتل مكة وذكرياته عنها ومشاهداته فيها واسطة العقد من هذا الكتاب.

ومكة هي رمز الإسلام والتوحيد؛ ولذلك ألف مجموعة ممَّن منَّ الله عليهم بالإسلام كتبا تحمل عنوان «**الطريق إلى مكة**»[2]، أو قريبًا منه[3]، وهم يقصدون بالعنوان الطريق إلى الله

---

(١) د. إبراهيم بن عبد الله السماري: ثقافة مكة المكرمة في أدب الرحلات الحجازية، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ، ص ١٥٤.

(٢) وذلك مثل، النمساوي محمد أسد (ليوبولد فايس سابقا)، والسفير الألماني في المغرب مراد هوفمان.. وغيرهم الكثير.

(٣) وذلك مثل، الألمانية «**كريستيانا بيكر**» المذيعة بقناة (MTV) وعنوان كتابها (من MTV إلى مكة)، الذي يعتبر رحلة أدبية تحمل سيرة ذاتية روائية للكاتبة، وكذا الفنانة الدانماركية «**نينا عائشة راسموسن**»، وعنون كتابها «**رحلة حج إلى مكة**»، وهو يمثل رحلة أدبية فيها سرد لقصة إسلام الكاتبة وبعض تفاصيل حياتها، وكذلك الحال مع زينب كوبولد في كتابها «**الحج إلى مكة**».

ودينه الإسلام، وتأتي كتب الرحلات الأدبية في سير ذاتية كاملة لأشخاص مؤلفيها، وفي هذا المعنى يشرح المهتدي النمساوي محمد أسد (ليوبولد فايس سابقا) دخوله في الإسلام قائلا: «لم يكن لي طريق آخر غير هذا الطريق، ومع أني لم أتعرف عليه على مدى سنوات بداية عمري، إلا أن مكة كانت هدفي واتجاهي، كانت تناديني منذ زمن طويل قبل أن يعي عقلي أنها تناديني، كانت تعلن بصوت قوي: مملكتي في الحياة الدنيا كما هي في الحياة الآخرة، فمملكتي للجسم كما هي للروح، تتسع لما يفكر به الإنسان وما يحسه ببدنه وما يفعله؛ تجارته وصلاته، فراش نومه وعلاقته بالآخرين؛ مملكتي لا تعرف حدا ولا نهاية، وعندما أيقنت بذلك على مدى الأعوام، أدركت إلى أين أنتمي، كانت أخوة الإسلام بانتظاري منذ مولدي، واعتنقت الإسلام، وتحققت آمالي في الانتماء؛ لأكون جزءا من كل واحد»[1]. إنها منظومة من المشاعر المتجذرة في قلب أسد، أخذته في رحلة داخل الرحلة، حيث استشعر أن هذا المكان له حميمية وُعد بها، فكأنما هو ظل يلاحقه أو مصير ينتظره.

نشعر بجذوة هذا الوجدان الديني العميق، والعاطفة المشبوبة في حديث أصحاب الذكريات والرحلات الأدبية في حديثهم عن مكة حتى قبل أن يغادروا بلادهم، وهي ما يمكن أن نسميها مرحلة الشوق والتوق إلى مكة.

وهذا ما حدث مع الكاتب محمد حسين هيكل، حيث زار مكة حاجًّا عام ١٩٣٦م، فألف كتابه «**في منزل الوحي**».. يقول -بعدما أقدم على إجراءات الحج-: «اتجه تفكيري إلى الحجاز وإلى الحج ومناسكه، وجعلت أصوِّر لنفسي ما أنا ملاقيه في هذه المناسك وما أنا مشاهده في البلد الحرام، وسرعان أن ملأ هذا التفكير نفسي هيبةً ورهبة؛ فقد عُدت بذاكرتي إلى حجَّة الوداع، وتخيلت أمامي النبي العربي يؤديها على رأس (مائة) ألف أو يزيدون، فطأطأتُ رأسي لهذا المشهد إكبارًا وإجلالًا، ما أعظم الفرق بين ما كان يومئذ وما نحن عليه اليوم! كان المسلمون يتحرقون شوقًا إلى أداء الفريضة وهم لا يعلمون متى كُتب لهم أن يؤدُّوها مع رسول الله، فلما أذن مؤذنه في الناس بالحج أقبلوا إليه من كل فج وهرعوا من كل حَدَب يَنْسِلون، وأقاموا بالخيام التي ضُربت حول المدينة ينتظرون يوم الرحيل وقلوبهم فياضة بالبِشْر، وكلهم الغبطة والمسرة»[2].

---

(١) محمد أسد، الطريق إلى مكة ص ٣٦٧.

(٢) محمد حسين هيكل، في منزل الوحي ص ٣٦، ٣٧

لقد رجع به إحساسه الإيماني العميق إلى مرحلة بعيدة استشعر معها حجة الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم وبصحبته المؤمنون – الذين تمنى الكاتب أن يكون معهم، وإن ذاكرة أسد جعلته ينسج بمخياله مشاهد حجة الوداع، تعبيرًا منه عن شوقه للمكان المقدس والنبي الكريم.

حتى إذا اقترب موعد الركوب يقول مناجيًا ربه: «لن تكون هذه الباخرة في تلك الساعات القدسيَّة مطية أجسام تجري فوق الماء، بل قبسًا من ضياء الهدى ونور الحق أَفَضْتَه على عبادك؛ فعادوا به إليك مهللين مكبرين مستجيبين إلى ندائك القدسي الأطهر، باعك كلٌّ منهم نفسه مجاهدًا في سبيلك، ونسي كلٌّ منهم هذه الحياة الدنيا فانيًا في جلال جنابك، لك الجلال جل شأنك». أخذ يصور حقيقة النور الذي يسري بالحجاج إلى مكامن الإقبال على المولى في خضوع وخشوع كاملين.

وفي أثناء الطريق إذ تقترب القوافل من الوصول إلى مكة، يبعث هذا الشعور في مخيلة كتاب الرحلات الأدبية أشواقا عارمة، ومشاعر صادقة حالمة، تعبر عن تلك الأحاسيس التي ملأت حنايا الكاتبة الدكتورة بنت الشاطئ بقولها: «انطلقت بنا السيارة من جدة مسرعة، تريد أن تبلغ بنا مكة قبل أن يدركنا الليل، ويلفنا الظلام، وقد أخذتنا شبه غفوة حالمة ونحن نحدق في الجبال الصخرية التي تحف بجانبي الطريق في شموخ، وأشعة الغروب تلقي ظلة رقيقة من ضوئها الشاحب على القمم الجرداء، ثم تنساب في رفق على السفوح العارية التي أرهقها قيظ النهار، وأوشكت السيارة أن تتم سبعين كيلو مترا ونحن لا نرى على الأفق سوى الجبال الصم، والتلال المتراكبة والأودية الضيقة المفروشة بالحصى والرمال.. ثم لاحت لنا مكة فجأة من بين الفجاج؛ فلم نتمالك أن هتفنا من أعماق قلوبنا في ضراعة وابتهال: لبيك اللهم لبيك.. ورددت البطاح أصداء هتافنا»[1].

لقد تعلقت الكاتبة بالمكان حتى وهو محاط بالجبال؛ فأخذت تستلهم منه نور مكة وروحانيتها، حيث أضاء لها التاريخ من خلاله قوافل المسلمين منذ أن شع نور الهدى، واستغرقت الكاتبة في استدعاء الذاكرة التي صورت لها ناقة النبي القصواء حيث قفزت صورتها التي قرأت عنها في الكتب إلى مخيالها البصري، فعبق في روحها المكان وأضاءت لها الذكريات.

(١) د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، أرض المعجزات (رحلة في جزيرة العرب)، ص ٧٣، ط٣، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

ولذا كانت هناك مجموعة من المشاهد ألح كتاب الرحلات على الإفاضة فيها، ومن أهم هذه الصور، ما يلي:

أ – الوصف الأول لدخول البيت الحرام ورؤية الكعبة لأول مرة:

يُعدُّ دخول البيت الحرام لأول مرة حدثًا لافتًا وأمرًا عظيمًا فتنتاب المسلم مشاعر الإيمان وتمتزج صور من اللذة والهيبة والرهبة والإجلال لهذا المكان، ولذلك لم يفت كتاب الرحلات أن يدونوا هذا الشعور في مذكراتهم بصورة تحمل القيم الدينية العميقة، وتعبر عن مستوى ما بلغوه من روحانية تحلق بأرواحهم في عالم ينقلهم إلى فضاءات إيمانية يتنفسون فيها الطهر والنور والإيمان، يحدد الدكتور عبد السميع الأنيس ذلك بقوله: «دخولك المسجد الحرام في حج أو عمرة، يصاحبه شعور لا يشابهه شعور في أي دخول آخر مهما كان عظيما، وله لذة لا تشبهها لذة من لذات الحياة الدنيا... فأنت من وفد الله، ووافد على رب كريم، فأي تكريم يفوق هذه الوفادة»(١). إن هيبة المكان قد خيمت على روح الكاتب وعقله، فشخوصه أمام الكعبة وتمثلها بصورتها اللابثة في الذهن التي وجدها أمام بصره جعله ينقله من عالم دنيوي متحقق إلى عالم سماوي متخيل، يرتفع عن المعنى السائد للمكان المألوف إلى ملكوت الله. إن هذا كفيل بأن يفقد المرء قدرته على الكلام والحركة من شدة المهابة والجلال.. جلال طاعة الخالق الأعظم وتلبية أمره بزيارة بيته، وليظل في أعماق نفسه متأملا لهذا المنظر الذي يفيض بمعاني الهيبة، إنه البيت العتيق، مكة قبلة المسلمين، والكعبة المشرفة التي رفع قواعدها إبراهيم وإسماعيل، إنها استدعاءات متكررة ومتلاحقة تهيمن على فكر المعانق لصورة الكعبة المشرفة في زيارته الأولى.

يقول الكاتب محمد حسين هيكل: «تبدَّت لي الكعبة قائمة وسط المسجد، فشدَّ إليها بصري، وطَفَر نحوها قلبي، ولم يجد فؤادي عنها منصرفًا، ولقد شعرت لمرآها بهزة تملأ كل وجودي، وتحركت قدماي نحوها وكلِّي الخشوع والرهبة، وقلت إذ وقع نظري عليها ما ألقى المطوف علينا أن نقوله: اللهم أنت السلام ومنك السلام، حيِّنا ربنا بالسلام، فزادني تحرك شفتي بهذه الألفاظ مهابة ورهبة، وأراد مطوفي ونحن نتخطى إليها أن يحدثني في تاريخ المسجد وأبوابه وما أضيف إليه من عهد الرسول، ثم أمسك حين لم يجد مني إقبالًا على سماعه، وكيف لي في هذه الساعة بالاستماع إلى حديث وقد ملك البيت عليَّ نفسي وجذبني لأسرع إليه فأطوف

(١) خواطر ومشاهدات في رحلة الحج، عبد السميع محمد الأنيس، ط١، دائرة الشئون الإسلامية والعمل الخيري بدبي، ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣ م، ص ٢٨، ٢٩.

به وأذكر الله عنده»[1]. لقد شرد ذهن هيكل إلى عالم سماوي وهو يتلمس بوجدانه هيبة البيت العتيق.

هكذا يرتمى الكاتب في أحضان التأريخ ليتأمل بكل عمق، بل ليجدها فرصة مواتية للتأمل العميق والرجوع بالذاكرة إلى زمن سيدنا إبراهيم، وهو يرفع القواعد من البيت، فيقول: «وارتسمت صورة البيت أمام بصيرتي منذ جعله الله مثابةً للناس وأمنًا يقيمون الصلاة ويذكرون الله عنده... وها أنا ذا أتقدَّم نحو البيت الذي أقام إبراهيم وإسماعيل قواعده، والذي وضع محمد قبل مبعثه حجره الأسود في مكانه؛ والذي طاف به الأنبياء وطاف به الملوك والأمراء على كرِّ الدهور وهم في مثل ما أنا فيه من خشوع ومهابة، وهم سواسية أمام الله مع من يرعونهم من عباد الله، وقلوبهم تفيض ندمًا وتوبة واستغفارًا.. فزادني شعورًا بما بيني وبين الذين أقاموا قواعد البيت والذين تطوَّفوا به من صلة يمَّحي أمامها الزمان والمكان، وتتبدَّى من خلالها وحدة الكون التي لا تعرف الزمان ولا المكان»[2].

هذه الرؤية العميقة للكاتب غطت على كل منظر أمام عينيه، ليبزغ في روحه منظر آخر تنسجه اللحظات الرهيبة؛ فلم يمنعه من استدعاء المصادر التاريخية ليذكر القارئ بأن «أول من بنى البيت هم الملائكة، وقيل: آدم عليه السلام، وقيل: خلقها الله قبل أن يخلق الأرض بألفي عام، ثم دحيت الأرض من تحته، كما تذكر المصادر أيضا أن الكعبة المشرفة بنيت مرات عديدة، إلا أن الثابت منها خمسة: بناء إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام، وبناء قريش، وبناء عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وبناء الحجاج بن يوسف الثقفي، وبناء السلطان مراد خان العثماني»[3]، ومازالت أشغال الصيانة واستكمال البناء والإصلاح جارية حتى غدت قبلة دينية وأثرية وعمرانية. إن هذه الصور المتلاحقة لدى الكاتب دفع إليها بعمق إيماني وصدق معرفي، فلم يكن له وقت أنسب من ذلك الوقت، لكي يتحدث بشغف تأريخي. ويصف محمد أسد بعد رؤيته الكعبة لأول مرة بطريقة فيها عقد المقارنات: «لقد زرت مساجد وجوامع ومزارات إسلامية كثيرة، رصعتها الأيدي الخلاقة بكل أنواع الفنون والأشكال، رأيت جوامع شمال إفريقيا التي تبدو

(١) محمد حسين هيكل، في منزل الوحي، ص ٦٢.

(٢) محمد حسين هيكل، في منزل الوحي، ص ٦٢،٦٣، باختصار.

(٣) محمود محمد حمو، مكة المكرمة تاريخ ومعالم، مكتبة الملك فهد، ط٥/١٤٣٢هـ، ص٤٢.

كقصور رائعة للصلاة مشيدة من الرخام والمرمر الأبيض؛ ورأيت مسجد قبة الصخرة في القدس، قبة عظيمة مكتملة فوق بناء رشيق، إنها حلم من الخفة والثقل من دون تعارض..»[1].

ولم تكن هذه المقاربات ذات معنى لولا أن محمد أسدًا شعر بشيء مختلف، هز وجدانه، يسترجع معه الصور الممكنة ليعود بذاكرته إلى أمكنة منحته مشاعر مختلفة ومؤثرة لكنها ليست بمثل هذا التأثير الذي تسمرت فيه عيناه وتجمدت أمامه قدماه، فهو أمام بيت الله المحرم. ظل الكاتب يعدد مجموعة من الأماكن الدينية والآثار المعمارية والمساجد الإسلامية التي رآها في شتى بقاع الأرض؛ فكل منظر رآه لا يمكن أن يحمل هذا العمق الروحي والموقف الشعوري المزلزل وهو يقف أمام البيت الحرام.

يقول: «رأيت كل ذلك، إلا أنني لم أشعر برهبة أمام أي منها كما أشعر بها الآن أمام الكعبة، لقد اقترب بانيها تمامًا من التعبير عن مفاهيمه الدينية في البساطة المطلة للمكعب، في التخلي عن كل ادعاء بشري للجمال الفني، لقد فكر مهما كان قدر الجمال الشكلي الذي يمكن للإنسان أن يصنعه بعقله ويده فسيكون من قصور الخيال أن يظن أنه يتناسب مع عظمة الله، ويبدو أن المنطق نفسه هو الذي وجه مصمم بساطة الأهرام المصرية –على الأقل وجد الذهن البشري متنفسًا لخياله في الأبعاد الهائلة التي بني عليها الأهرام– أما هنا في الكعبة فيتحدث الشكل عن التخلي البشري عن كل ادعاء، ويتحدث عن التسليم لله؛ ولا يوجد مثيل ولا شبيه للبساطة العظيمة لبناء الكعبة على وجه الأرض كلها»[2]؛ لكن كل ذلك الوصف المكاني مختلف في مكة، لأنه لا يراه بعينه بل بعقله بدينه! ولا يصفه بقلمه بل بقلبه!

تطورت العمارة الإسلامية، ومكة خصوصا بعد فتحها، «وانتشار الدعوة الإسلامية في شتى بقاع الأرض، وانتشار الصحابة رضوان الله عليهم، وعرب الجزيرة، في البلاد الإسلامية، يعلّمون الناس الدين، وجاء المسلمون إلى مكة المكرمة حجاجًا ومجاورين لبيت الله الحرام، وموطن نبيهم عليه أفضل الصلاة والتسليم، اندمجت ثقافاتهم مع الثقافة المكية في شتى المجالات، ومنها ثقافة العمارة، فاستمر هذا التنوع في الثقافات على مدى السنين، فتكونت منه العمارة الإسلامية المكية. فتجد العمارة بمكة المكرمة متأثرة بالعمارة المصرية والعمارة الشامية،

(١) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص ٤٩٠.

(٢) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص ٤٩٠، وما بعدها.

والعمارة اليمنية، والعمارة التركية، والعمارة الهندية، والعمارة التركية، والعمارة الفارسية»[1]. لقد عظمت في روحه هيبة المكان ورهبته، رغم إنه يراه بغير بهرجة ولا زخرفة ولا تكلف، فهو يتعاظم لكونه قائدًا لك إلى تدبر ملكوت الله وتسبيح بحمده وتكبيره وتعظيمه.

فهو ما فتئ يزداد تأملا وتدبرًا في هذا المنظر البهيج، إذ يقول: «وقفت أتأمل البيت الذي أقامه إبراهيم عليه السلام، وأتدبر عظمته من دون قدرة على التفكير (الأفكار والانعكاسات تأتي إلى المرء بعدها بزمن طويل) من نواة فرح داخلي انبثقت بهجة وازدادت وعلت مثل الصوت الشجي»[2]. سلم الكاتب هنا قلمه لوجدانه ومداده الإيماني العميق ليصف مشاعره الخاصة.

لكن يأتي وصف أول صلاة في البيت الحرام ووصف سماع القرآن في مكة ليعطي معنى ساميًا عظيما لا تحيط به الأفهام، لذلك عبر عن هذا المعنى عبد السميع الأنيس بقوله: «أجمل سماع للقرآن سماعه في مكة؛ لأنك تسمعه في أول مكان شُرِّف بتنزل القرآن الكريم فيه، ويزداد تأثيرا إذا كانت السور مكية، وسماع القرآن أو تلاوته في مهبط نزوله لها مذاق خاص، لا يتذوقه الإنسان في غير هذا الموطن»[3]. هذه الكتابات لا تمثل الشعور الخاص بكاتب الرحلة فحسب، بل تحيل على المعنى التاريخي المضمخ بقوافل الهداية والنور. هذه مشاعر كتّاب (أدب الرحلة) تجمع على خصوصية المنظر ومهابته وانعكاسه على فكر وعقل الزائر المكتنز بالأحاسيس الدينية العميقة.

ب – منظر الحجيج:

يتحدث بعض كتاب الرحلات عن (منظر الحجيج) والزحام بعمق فلسفي من خلال نظرته التحليلية التأملية، إذ يصف محمد أسد هذا المنظر وهو في الطريق إلى باب الحرم قائلا: «شعوب من جميع بقاع الأرض، وأزياء وتعبيرات متباينة، بعضهم بعمائم، وبعضهم عاري الرأس، بعضهم يسير صامتا خافضا وجهه ومسبحته في يده، وآخرون يركضون بحماس في الزحام؛ خليط أجسام بنية للصوماليين يلمعون كالنحاس في ملابس صارخة الألوان؛ وعرب من

(١) أسامة بن محمد الرسي الحسيني، مكة وشعابها، وزارة الثقافة والإعلام، المملكة العربية السعودية، د.ط سنة ١٤٣٩هـ-٢٠١٨م، ص٣٤٩.

(٢) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص ٤٩٢.

(٣) خواطر ومشاهدات في رحلة الحج، عبد السميع محمد الأنيس، ص ١٨.

أعماق الجزيرة العربية، وجوه نحيلة بلحي كثة، وخطوات متثاقلة وآخرون ضخام الأجسام أوزبكيون من بخارى، ما زالوا بملابس بلادهم من قفطان سميك وحذاء طويل حتى الركبة على الرغم من جو مكة اللافح... مغاربة متثاقلو الخطو يتيهون باللباس الأبيض، وأهل مكة بملابسهم البيضاء ورؤوسهم المغطاة، فلاحون مصريون بوجوه تملؤها الإثارة؛ هنود في ملابس بيضاء وعيون سوداء تتطلع من تحت عمامة ضخمة بيضاء، ونساء هنديات بزيهن التقليدي فبدين مثل خيام متحركة؛ الفولاتا السود من تمبكتو وداهومي في ملابسهم الزرقاء وغطاء رأس أحمر، سيدات صينيات دقيقات الحجم مثل فراشات ملونة، وخطوات صغيرة وأقدام دقيقة مثل حوافر الغزلان.. صراع وزحام من كل ناحية حتى تشعر أنك في قلب موجة عاتية، ولا تتمكن من تفاصيل صورة مكتملة، كل المشاهد طافية على عدد كبير من اللغات واللهجات، إيماءات حماسية وإثارة حتى وجدنا أنفسنا أمام باب من أبواب الحرم»[١].

مثّل هذا المنظر البهيج عند هيكل وهو في طريقه إلى مكة صورة روحانية تنضح منها الهيبة، فملأه شعورًا بالرهبة بما كان يمثله جلال الموقف، والمحبة والأخوة الإسلامية لأولئك الركبان من كل الجنسيات الذين يسيرون بهذه القوافل يحدوهم الشوق إلى بيت الله الحرام: «ذلك وحي هذه الساعة الفذة من ساعات حياتي، والتي اتصلت فيها لأول مرة بمكان خطت فيه قدما محمد النبي العربي، أكبر من دعا إلى المحبة والإخاء، وأكبر من دعا إلى السعي والجهاد، وفاض بي هذا الشعور فتندت عيني، وخفق قلبي، وانفرجت شفتاي عن آي الحمد والشكر: لبيك اللهم لبيك.. وسمعت أذناي الأودية والجبال والقوافل السارية بينها جميعا يدوي فيها هذا النداء، فازداد شعوري فيضا، وقلبي خفقانا، وازددت لله شكرا وبه إيمانا»[٢]، إنه تعبير بلغة أدبية تسرد المنظر وتسوّد ظلاله.

بينما وقف الحاج عبد الله فيلبي[٣] لينقلنا إلى مشهد آخر يتسم بالواقعية حيث يوثق رحلته بمعلومات مهمة عن أعداد الحجيج سنة ١٩٣١م وما قبلها ويتوقع ما بعدها ويذكر أسباب تضاؤل

---

(١) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص ٤٨٨، وما بعدها.

(٢) محمد حسين هيكل، في منزل الوحي، ص ٦٠.

(٣) اسمه الحقيقي هاري سانت جون فيلبي، إنجليزي الأصل، ولد ١٨٨٥ م الموافق ١٣٠٢هـ، تعددت رحلاته ودراساته، ثم سافر إلى المملكة العربية السعودية عدة مرات، وأصبح مستشارا للملك عبد العزيز، وأعلن إسلامه ١٩٣١ م، وتوفي في بيروت ١٩٦٠، عن عمر يناهز ٧٥ عاما.

الأعداد في بعض السنوات فيقول: «لقد تراوح عدد حجاج الخارج خلال السنوات الخمس السابقة ما بين ٨٠,٠٠٠ و١٢٠,٠٠٠ ويعزى الانخفاض في ١٩٣١م أساسًا إلى الكساد الاقتصادي العالمي الذي وسم ذلك العام والأعوام التالية. وفي ١٩٣٢م هبط العدد أكثر من ذي قبل إلى ٣٠,٠٠٠، وفي العام الذي تلاه إلى مجرد ٢٠,٠٠٠، وهذا يمثل منتهى الانخفاض، ذلك لأنه في ١٩٣٤م ارتفع عدد القادمين من الخارج إلى ٢٥,٣٧٠ حاجًا ومنذ ذلك الحين استمر العدد في تحسن بطيء، لكنه مطرد، حتى أعادت الحرب عقارب الساعة إلى الوراء مرة أخرى، ففي العقد السابق للحرب، ربما كان معدل حجاج الخارج الذين يزورون مكة كل عام نحو ٣٥,٠٠٠، وقبل هذه الفترة كان وفود الحجاج من الملايو والهند الشرقية الهولندية[١] وحدها كثيرًا ما يتجاوز ٥٠,٠٠٠ نفس في العام، وقد كان هذا العنصر بصفة خاصة هو الذي تقلص إلى نسب ضئيلة بسبب الهبوط في أسعار السلع التي ينتجونه – السكر والمطاط خاصة»[٢].لم يقف حديث الكتاب وأدبهم عند تحبير الكتابات بالمشاعر بل دفعهم هذا الواقع الملموس إلى رصد الحقائق الرقمية والتاريخية.

ج – فلسفة السعي:

من نافلة القول أن السعي بين الصفا والمروة شعيرة رئيسة من شعائر الحج، وله أبعاد دينية تاريخية منذ عهد هاجر أم إسماعيل –عليهما السلام–، وبالتالي كان مثيرا لمشاعر شتى من كتاب الرحلات، لا نستطيع حصرها في المقام الضيق، ولكننا نقف على واحد من هذه التأملات المؤثرة كما نجده لدى الدكتورة بنت الشاطئ، وهي تقف على عتبات المسعى بعد أن أخذت تجري بين الصفا والمروة، بزغت معها مشاهد من التاريخ الإسلامي، ثم تهادت إلى أحقاب تاريخية أعمق، حيث قدمت فصلا تاريخيا عن حياة السيدة هاجر –رضي الله عنها– ختمته بقولها: «يا له من تاريخ.. إنه جهاد أم في سبيل وليدها، قد تقبلته السماء عبادة وقربى، فجعلت من تلك القصة المؤثرة للأمومة سفرا يتلى في الكتاب المقدس، وجعلت من دعاء إبراهيم آية منزلة في القرآن الكريم، وكان مسعى هاجر وهرولتها بين الصفا والمروة سبعة أشواط عزيزا على الإسلام كما كان عزيزا على الأجيال من قبله، فتأصلت في الشريعة الإسلامية شعيرة من

(١) يقصد الكاتب بهذا المصطلح إندونيسيا وما جاورها؛ حيث كانت تلك المناطق واقعة تحت الاحتلال الهولندي.

(٢) حاج في الجزيرة العربية، هاري سانت جون فيلبي (عبد الله فيلبي)، ترجمة: عبد القادر محمود عبد الله، ط١، مكتبة العبيكان، ١٤٢٥هـ، ص ١٨.

شعائر الله في الحج والعمرة، وظلت قصتها ملء التاريخ الديني على مر الزمان، وما كانت هاجر سوى أم طريدة مضطهدة، نبذت مع وليدها بالعراء في الفلاة، الموحشة، بواد غير ذي زرع.. لكنها أم! وكانت تلك الأمومة حسبها عبادة وقربانا»[1]، لقد ذهب الكتّاب بذاكرتهم الوجدانية والدينية إلى أعماق الحقيقة من التاريخ ليستدعون معها هذا التراتب التاريخي والتمرحل السردي لقصة بناء الكعبة ثم حكاية السعي بين الصفا والمروة مع استدعاء صورة متحركة لهاجر وهي تذرع الأرض يمنة ويسرة بين الصفا والمروة لاهثة بكل سرعتها باحثة بكل أمومتها عما يسد رمق هذا الصغير الذي وجد نفسه بين أحضان البركات والعطاء الرباني بعد أن احتضنته الأرض المجدبة، حين بزغت لها بركات السماء ومن بركاتها أن تغدق من خيراتها على هذه الأرض الطاهرة حتى يومنا هذا.

هـ – وصف الوقوف بعرفة

إن منظر الحجيج وهم وقوف في صعيد واحد على أرض عرفات المباركة، بهذا اللباس الأبيض الذي لا تمييز فيه بين أسود وأبيض، ولا بين ملك ومملوك، ولا غني وفقير، لمنظر العيون والقلوب معا، وهو من أكثر المشاهد التي حرص كتاب الرحلات على تصويره ورصده والحديث عنه باستفاضة، ولا يتسع المقام لكل ذلك؛ وإنما قد نستشهد بما قاله الكاتب علي الطنطاوي وهو يصف ذلك المشهد المهيب «لو كان يجوز أن يشهده غير مسلم لاقترحت أن تجعله هيئة الأمم المتحدة عيدها الأكبر؛ إذ هنا أعلنت حقوق الإنسان، لا كما أعلنت في الثورة الفرنسية، ولا كميثاق الأطلنطي الذي كتب على الماء، أعلنت قبل ذلك بأكثر من ألف سنة... مشهد يهدم الفروق كلها، فروق الطبقات وفروق الألوان وفروق الأجناس، الناس كلهم إخوة لا ميزة لأحد على أحد إلا بالعمل الصالح، وإذا كان اللباس الرسمي في الحفلات والمواقف الرسمية ما تعرفون، فاللباس الرسمي هنا قطعتان من قماش فقط، لا خياطة ولا أناقة، ولا زخرف ولا يفترق في هذا المقام أكبر ملك عن أصغر شحاذ.. إنه منظر عجيب، إنه أعجوبة الأعاجيب، عشرات وعشرات من آلاف الخيام، تحتها أقوام من كل بقعة في الأرض، لا يجمعهم لون ولا لسان ولا بلد ولكنهم لا يقفون ساعة حتى يحس كل أنه أخ للآخر... إنهم يضجون بكل لغة، يهتفون جميعا، لبيك اللهم لبيك...» إلخ[2]. لقد اتجه الكاتب إلى الغائية المثلى من وراء هذا

(١) د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، أرض المعجزات (رحلة في جزيرة العرب)، ص ٧٧.

(٢) على الطنطاوي، من نفحات الحرم، ص ٥٧.

الاجتماع المبارك وفيها تحررت القلوب من الضغائن والعقول من الجهالة والنفوس من العنصرية والدماء من العصبية العرقية فقد اتجه الكاتب إلى أهم المعاني التي يمكن أن يخرج إليها الحج بتصوير الأخوة أجمل تصوير.

ويشرح الحاج عبد الله فيلبي مشهد النفرة من عرفات باستفاضة، فيقول: «وما أن غربت الشمس، حتى بدأ الموكب العظيم في لحظة بالتحرك للعودة، وحسبما أذكر، فما من كاتب قادر على وصف النفرة من عرفات، وأدرت لحاظي في المنظر، كان منظر الجمال هو الذي راعني، ففي الوادي الفسيح كله الذي غدا في حركة مفاجئة نحو مكة، كانت صفوف الجمال وفيالقها هي التي استرعت انتباهي، لا بد وإن كان هنالك ما لا يقل عن ٥٠,٠٠٠ منها، كلها يسير للأمام في خطوتها السريعة الصامتة التي تميزت بها وسيلة النقل الرئيسة في الجزيرة العربية. لقد كان منظرًا طيبًا حقًا، وما أن ازداد الغسق، وارتفع الغبار من حفيف الأخفاف حتى بدأت فيالقها تفقد واقعيتها وتتحرك بصمت وخفية، في الضوء الخافت المعلق الآتي من القمر فوقنا، ومعه المريخ والمشتري أمامنا، وفي ذيليهما منكب الجوزاء. وبالرغم من ضوء القمر لقد استحال علينا رؤية أي شيء بوضوح في ذلك الضباب المتحرك، وأجسام الرجال متشحة بالبياض قابعة على ركائبها العملاقة، وتجاوزنا أعشابًا قصيرة وأشجار السلم ذات الشوك. وحين ضاق الوادي بين التلال المسودة، مررنا بسرعة بالجمال حاملة الهوادج، ومجموعات من المشاة، ورجالًا ونساء. لقد كان مدهشًا جدًا، ونحن لا نكاد نرى شيئًا أن تتحاشى الجمال بفطرتها كل العقبات التي في طريقها، بشرية كانت تلك أم غير ذلك، والتي سرعان ما خلفتها جحافلنا وراءها»[1]، كل هذه العبارات الأدبية مثلت سلسلة سردية تتعلق بها الأفئدة وتأخذ بألباب المتلقين، لقد كان منظر (الحجيج – الناس – الجمال – الراحلة) يمثل رحلة أدبية تعيشه الذات المعبرة وهي تحلق بين هذه المراحل والخطوات مستلهمة المعاني العظيمة.

و – وصف الآثار الإسلامية النبوية:

هناك من كتاب الرحلات من أخذ يتنقل في ربوع مكة، ويتردد على الأماكن التي كان يتردد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرجع بسيل من الذكريات إلى عصر النبوة، ويرى بنفسه تلك الأماكن التي كان يمر عليها أعظم البشر، إنها محاولة للاتصال الحسّي الذي من خلاله

(١) حاج في الجزيرة العربية، مرجع سابق، ص ٤٠-٤١.

يتلمس حقيقة تلك الخُطا وتلك الأماكن الشاخصة التي كانت شاهدة على أحداث ومواقف تاريخيّة عظيمة.

يجسّد علي الطنطاوي صدى وقوفه على غار حراء بوصف تتحرك معه القلوب والأخيلة: "لقد طوفت في الآفاق، وضربت في البر والبحر، ورأيت من البلدان قديمها وحديثها، ووقفت على على مواطن القدس وآثار المجد، ومجالي الجمال في الأرض، فما رأيت مكانا كان أبلغ في قلبي أثرا، وكان أكثر على البشرية فضلا، وأخلد في التاريخ عظما، وأكبر على الحضارة يدا، من هذا الغار المقفر، القائم على قمة جبل أجرد، في قفر موحش منقطع، هذا المرقب الذي أطل منه يوما على العالم سيد العالم محمد»[1]، كان الطنطاوي متجردًا من الوصف الجغرافي والجيولوجي يتحسس بقلمه قيمة هذا المكان بنفسه، لقد كان غارًا تحفه الصخور لكنه لدى الكاتب أضحى منارةً من نور.

المبحث الثاني: المواقف الشخصية التي سجلها كاتب الرحلة

كل زائر لمكة في موسم الحج يعجب أشد العجب من تلك الجموع الغفيرة التي ما تلبث حتى تنساق وتنساب بطريقة لافتة في هذا المكان المقدس انسياب الماء الرقراق في الجداول والخلجان، فهي هادئة حينا، وهادرة أحيانا، ولكنها جميعا لها مساراتها التي تسلكها مهما تعرجت أو استقامت، بلا طغيان أو فيضان، وهذا بدقة ما يحدث في مكة، فهناك شلالات من الأمواج البشرية المتلاطمة، كل يسير في طريقه، بلا نزاع ولا إثارة أو إزعاج للآخرين، وهذا المنظر البهيج يلفت أنظار كتاب الرحلات، فيذكرون ما تعرضوا له من مواقف أو شاهدوه بأعينهم في هذا الزحام الشديد، مبينين صورًا وألوانًا من التراحم والمودة والتسامح التي ليس لها مثيل في أي مكان آخر في العالم.

حتى إن أحدهم ليكتب واصفًا بروحانية عميقة حين استثارته ضخامة الأعداد وكثرة الناس في مزدلفة: «لاحظت في مقامي فيها أن الإنسان مهما أوتي من بيان، لا يستطيع أن يصف هذه المشاهد، الملايين من البشر يفترشون الأرض، ويلتحفون السماء، كبارا وصغارا، رجالا ونساء، وكل ذلك بحب غامر، وشوق شائق، وانقياد تام، منفذين أمر الله، ومقتفين أثر سيد الأنبياء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم»[2]. وكيف لا يتعلّق أحد بهذا المكان وقد قال رسول الله

(١) على الطنطاوي، من نفحات الحرم، ص ١٧، ط دار الفكر، دمشق، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م.

(٢) خواطر ومشاهدات في رحلة الحج، عبد السميع محمد الأنيس، ص ٤٦.

صلى الله عليه وسلم: «اللهم حبب إلينا المدينة، كما حببت مكة وأشد، وبارك لنا في صاعها ومدها وحول حماها إلى الجحفة»[1]، لقد ترسخ لدى الكاتب أن الحياة الحقيقية ليست في صور الناس وهم يلهثون وراء العيش بل رأى أجمل منظر صوره وجسده في كتاباته حيث منظر أولئك الحجيج وهم يتجردون من كل مظاهر التنعم بالحياة مرتبطين بالله بكل أعماقهم وقلوبهم متعلقين من خلال هذا المكان بخالقهم وداعيهم إلى الحج.

ومن أعظم ما يمكن أن تقرأه من مشاهد الحج ما صوره فيلبي عن مسيرة الحجيج إلى عرفة، وانعكاس ذلك المنظر على رؤيته وحالته النفسية: «لقد كان الطريق الواسع المختـرق للمدينة شرقًا والمجاور لمقبرة المعلاة القديمة والقصر الملكي في المعابدة والمفضي للمسجد الحرام، طيلة اليوم مسرحًا لحركة لا تنتهي، وفي ازدياد دائم وقطارات الجمال حاملة الهوادج، أربعة أو خمسًا في صف أفقي أحيانًا، تسير حاملة أثقالها ببطء وتقدم إلى مقصدها، الذي يبعد نحو تسعة أو عشرة أميال، وبين صفوف هؤلاء المسافرين بهذه الكيفية كانت جماعات من الحجاج على الحمير تتخلل طريقها في خطوات أسرع، داخلة في هذا الخليط من الدهماء وخارجة. وبالرغم من ذلك فإن في الطريق العريض مكانًا كافيًا للفيالق السائرة على أقدامها، كبارًا وشبابًا، رجالًا ونساء وأطفالًا، وبصفة عامة في فرق حاملة رايات متعددة الألوان لتكون مناطق تجمّع للجماعات المختلفة، في الطريق وفي سهل عرفات أيضًا في آخر المطاف الذي بدأ يتحول إلى مدينة من الخيام، وقد أضفت هذه الرايات والمظلات لمسة من اللون البهيج على اللون البني والأبيض من كتل الأجسام والإحرامات التي كانت تسير وتكاد تكون بلا انقطاع في الطريق وهنا وهناك تأتي مجموعة ممن وصلوا حديثًا من جهة الشرق، حريصة على تأدية الشعيرة الخاصة من أول دخول لمكة. وكلما تقدم اليوم نحو المساء اكتظ الزحام، من الجمال، والحمير، والمشاة. ثم هبط ظلام الليل على مدينة لا تزال تفرغ المترددين عليها من الناس في سيل لا نهاية له»[2].

ومن الأمور التي يعنى بتصويرها كتاب الرحلات مع شدّة ذلك الزحام الذي لا مثيل له في العالم أجمع ما كان عليه الجميع من انضباط سلوكي تام، وهدوء لافت أمام المتناقضات والتداعيات والتشابكات التي تحدث في الحج، ويحرص كتاب الرحلات على تسجيل المشاهدات

---

[1] محمد بن عبد الله الغبان، فضائل مكة الواردة في السنة، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١/١٤٢١هـ، ص٢٤٢.

(٢) حاج في الجزيرة العربية، مرجع سابق، ص ٢٥، وما بعدها.

التي يرونها بأعينهم من شتى المواقف التي قد تبدو غريبة في أي مكان آخر من هذا العالم، وإن كانت مألوفة لكل المسلمين، فمثلا لا يمكن إغفال ذلك المنظر المهيب الذي يجسّده مشهد رجل يحمل أمه يطوف بها، إنه مشهد مكرر منذ الصدر الأول في الإسلام إلى ما شاء الله، ولكن قول هذا وسماعه شيء ورؤيته صراحة في هذا الزحام الشديد شيء آخر تماما، يصوّر ذلك عبد السميع الأنيس ساردا تلك الصورة السردية: «رأيت رجلا يحمل أمه فوق كتفيه، وهو خارج من المروة، فهزني هذا الموقف في علاقة الولد مع والدته وبره بها»(١).

أ – مواقف في الأسواق المكية:

إذا كانت مكة المكرمة مهوى أفئدة المؤمنين روحيًا فهي مهوى أنظار المستثمرين تجاريًا، إذ هي أكبر مركز اقتصادي عالمي في موسم الحج، فكل مسلم زائر لها يهمه أن يأخذ معه بعض الهدايا التذكارية للأهل والأصدقاء من باب قوله صلى الله عليه «تهادوا تحابوا»(٢)، ومن ثم كانت الأسواق المكية إحدى الأماكن التي يقصدها الزائر؛ فلقد اكتسبت مكة عبر التاريخ مكانة «اقتصادية مع مكانتها الدينية؛ وقد جسّدتها دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ [إبراهيم: ٣٧]؛ فأصبح الناس يأتون مكة للحج من كل فج عميق، فنشطت تبعا لذلك الحركة التجارية، وكانت لمكة في عهد قريش حركة تجارية مميزة، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ [قريش: ٢]، وهي رحلة تجارية إلى اليمن في فصل الشتاء، وإلى الشام في فصل الصيف، وقد مارس رسول الله صلى الله عليه وسلم التجارة قبل البعثة وقد نشأت بمكة الأسواق الموسمية والثابتة»(٣).

يجسّد علي الطنطاوي المواقف النبيلة التي تحدث في مكة من خلال ما حدث له في سوق مكي قديم وهي لا تحدث إلا في بلاد تؤمن بالقيم والمثل وترعى الإسلام فيقول: «ولكني رأيت في هذا السوق الضيق، في هذه الدكاكين الصغار شيئا لم أر مثله ولا قريبا منه في المدن الكبار؛ وقفت فيه على تاجر شيخ نجدي، فسألته عن بضاعة معروضة: كم ثمنها؟ قال: كذا. ولكن

(١) عبد السميع الأنيس، خواطر ومشاهدات في رحلة الحج والعمرة، ص ٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ح٥٩٤).

(٣) أسامة بن محمد آل عز الدين الرسي الحسني، (م.س)، ص٢٤٦.

عند جاري هناك أجود منها وأرخص! أي والله هكذا كان، ولولا أنه كان معي لما صـــدّقته»[١]، هذا الرصد هو استكمال للموقف الديني التي تخلقه تلك الروحانية المستمدة نورها من طهر المكان وقداسته.

لقد كان لهذا الموقف صداه الواسع في نفس الكاتب علي الطنطاوي؛ ولذا لهج من أعماق قلبه بقوله: «فيا أيها الشيخ النجدي الذي لا أعرف اسمه. لك تحياتي على البعد وإكباري»[٢]، وإن ذلك من مظاهر استكشاف مكة محبة الزائرين لأرجائها وأسواقها فقد «كانت الأســـواق المكتظـــة مصدر اهتمام ومتعة فائقين»[٣]، كان الكتّاب يريدون أن يجسّدوا قيمة المكان في بركته والتجـــارة فيه لعظم مكانته.

ب – زيارة الملك

اعتنى الملك عبد العزيز بمكة عناية بالغة، «وفي زمنه جُدّد العلمان اللذان فـــي طريـــق جدة القديم، ولم أعرف السنة التي بُني فيها هذان العلمان، إلا أنه كان مكانهما علمان سابقان»[٤]، ومن أهم المواقف التي سجلتها الكاتبة بنت الشاطئ موقفٌ لجلالة الملك عبد العزيز في رحلتهـــا الحجازية[٥]، وهو لم يملك دموع عينه حسرة وترقبا لمصير الأمة العربية المجهول وقـــد حلـــت النكبة واعترف العالم بإسرائيل، فتقول، وهي تشرح ما دار في استضافة جلالة الملك للوفد التـــي كانت تعتمر معه: «لم يكن لجلالته حديث إلا عن محنة الأمة بعار إسرائيل، ولقد مـــدت الأمـــة بصره إلى الأفق الشمالي يستوعب أبعاد النكبة في رؤية ثاقبة، ويحس بحدس فراسته الملهمة نذر الإعصار العتيّ يوشك أن يوغل في صميم وجودنا وينتهك أقدس حرماتنا.. وتهدج صوت العاهل الشيخ، إذ يتساءل في حيرة وأسى: متى تحتشد الأمة للجهاد، عسى أن يبذل حياته وأبنـــاءه فديـــة

(١) على الطنطاوي، من نفحات الحرم، ص ١٣.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) آرثر جون وافل، رحلة الحاج المعاصر إلى مكة عام ١٩٠٨م، ترجمة، ريم بو زين الدّين، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط١/٢٠١١م. ص١٥٧.

(٤) عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الحرم المكي الشريف والأعلام المحيطة به، ص١٠٥.

(٥) كانت هذه الرحلة في ١٣٧٠هـــ الموافق ١٩٥١م.

لشرف أمتنا؟ وأراه لم يملك دمعه، وهو يتمنى على الله تعالى لو أنه أعفاه بالموت من شهود الكارثة، ورحمه من وطأة المعاناة الباهظة لإصر التخاذل وذل العار»[1].

وعلى الرغم من تلك الهموم التي يعانيها جلالة الملك لم ينس أن يمنح السيدة عائشة (بنت الشاطئ) لقبا عزيزا عليها، فتقول: «ودعنا جلالة العاهل -رحمه الله- وفي النفس هم وشجن، لم يلطف منهما ما حظينا به من كرم الوفادة، وأنس اللقاء، كان لي معهما أن تلطف جلالته فدعاني أميرة الصحراء»[2]. إن المواقف التي تصفها الكاتبة في ذلك المكان ترسخت في ذاكرتها ودفعتها للفخر بكل ما نالته هناك.

ويشرح الحاج عبد الله فيلبي ما كان يحدث في تلك الأمسيات التي يستضيف فيها الملك ضيوف الرحمن، فيقول: «وفي تلك الأمسية نفسها بدأ الاحتفال الفعلي بالحج بحفل العشاء الملكي التقليدي في القصر الذي كان قد دعي إليه ما بين ٦٠٠ و٧٠٠ ضيف، ممثلون تقريبًا لكل قطر ومجموعة تدين بعقيدة الإسلام. وبعد الفراغ من العشاء بالسرعة الشرقية المعروفة تجمع الجمع الغفير في قاعة الاستقبال الفسيحة بالقصر ليستمتعوا بإلقاء الشعراء لقصائدهم الشعرية المناسبة لهذه المناسبة – شعراء الجزيرة العربية ومصر، وتلت الخطب الشعر – بالعربية والأوردية، بل وبالإنجليزية»[3].

ولم يتخل فيلبي عن نزعته نحو التحليل النفسي والشكلي وترابطهما من خلال وصفه طريقة جلالة الملك في الخطابة، فيقول: «ثم تكلم الملك عبدالعزيز الذي ليس في كل الجزيرة العربية الأرض التي لا تفتقر إلى الفصاحة، من خطيب أكثر منه تمرسًا في الخطابة، أو أكثر تواضعًا وبساطة في الأسلوب، ولا أثقل وزنًا وأشد تأثيرًا في أسلوب خطابته. إنه لما يربو على ثلاثين سنة من مسؤولية متزايدة رفاهية مملكة تتسع باطراد، كان دائمًا مدركًا للإمامة التي صنعها وضعه الفريد. لقد كان يرتجل الحديث دائمًا، بلسان متكلم دائمًا من كرسيه، كما يفعل العرب، وبلا حيل خطابية، أو إشارات باليد تقريبًا: إنه يهيمن على مستمعيه بالتدرج بهم نحو الذروة بتقريرات منطقية مستندة دائمًا على أقوال لعلماء ثقات من السابقين، معروفين لسامعيه

(١) د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، أرض المعجزات (رحلة في جزيرة العرب)، ص ١٥.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) حاج في الجزيرة العربية، مرجع سابق، ص ٢١، وما بعدها.

مثلما أنهم معروفون لديه، ولا طعن فيهم»[1]، لم يفت على كتّاب رحلة الحج أن يوثقوا علاقاتهم وحفلاتهم ولقاءاتهم ورصدهم لما دار فيها من أوصافٍ لشخصية الملك عبدالعزيز رحمه الله في حفل الاستقبال.

ج – مواقف مبهجة:

ليس هناك لذة ولا بهجة تعادل لذة المؤمن وهو يدلف مع باب الكعبة، يقلب طرفيه بين جوانح هذا المكان العظيم، ذلك المكان الذي لا يستقبل إلا من كتب الله عز وجل لهم حظهم من الغنيمة في الدين والسعادة في الروح، وقد كان من حسن حظ الكاتب محمد حسين هيكل الدخول إلى وسط الكعبة، إثر موعدة فيقول: «وذهبت في الموعد، فطفت بالبيت، وصليت بمقام إبراهيم، وبحجر إسماعيل، ثم عدت إلى المقام قبالة باب الكعبة، أنتظر فتحه، وكان مطوفنا ينتظر أخبار السادن خيفة أن يطول بنا انتظاره، وأقبل الشيخ الشيبي بعد سويعة في لباسه الضافي، وسار خدم الكعبة من ورائه، ورآهم الناس فتجمهروا عند الباب، ووضع الخدم السلم وصعدوا عليه وفتحوا باب البيت ودخلوا إليه، ولم يؤذن بالدخول لغيرهم، وسألت في ذلك فعلمت أنهم يكنسون ويطلقون فيها البخور، ولما أتم القوم واجبهم وقف السادن بالباب وأشار إليّ، فتقدمت نحو هذا الدرج الذي يوضع كلما فتحت الكعبة، ويرفع بعد تمام زيارتها»[2]، يهتم هؤلاء الكتّاب بالتفاصيل التي تبدو يسيرة لمن يكون حاضرًا في الحدث، لكن هؤلاء يرصدون النبض الشعوري أكثر من الوصف التقريري، فالأحداث التي يزخر بها المكان توشك أن تكون طقوسًا كتابية ذات معنى خالد لدى كثير من كتّاب الرحلة إلى مكة.

د – مواقف مؤلمة

وهناك على الجانب الآخر أحداث مأساوية قد تصل إلى أن تكون مهلكة يتعرض لها كتاب الرحلات فيكون لها موضع كبير ومؤثر في أدب الرحلات، وقد حدثت بعض هذه المواقف المأساوية للمهتدي النمساوي محمد أسد وهو في مكة، منها ما حدث له شخصيا في إحدى زياراته لمكة حيث أشرف فيها على الهلاك في عاصفة رملية هبت عليه وهو في الطريق إلى مكة كادت أن تفقده حياته، إذ خرج يبحث عن ناقة رفيقه التائهة؛ نظرا لأن رفيقة كان يعاني من التواء في الكاحل إثر تعثره وهو يطارد أرنبًا بريًّا، فعسكرا في المكان حتى الصباح لعل الألم يخف، فلما

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٢) محمد حسين هيكل، في منزل الوحي، ص ١٨٨.

استيقظا لم يجدا ناقة الرفيق فقد حلت عقالها وانصرفت، ولم يستطع رفيقه النهوض للبحث عنها بنفسه، ويذكر محمد أسد ما حدث بعد ذلك، فيقول: «ركبت ناقتي على ضوء الفجر الوليد وانطلقت باحثا عن الناقة الشاردة، تتبعت آثار أقدامها على الرمال في السهل الرملي حتى الكثبان، أمضيت مدة ساعة متتبعا أثرها، ثم ساعة أخرى، ثم ثالثة، وظل أثر الناقة ممتدا إلى مسافات لا تنتهي. أوشك النهار على الانتصاف، فتوقفت لالتقاط أنفاسي، ترجلت أكلت حفنة تمر، وارتويت من قربة الماء المعلقة في رحل الناقة، توسطت الشمس كبد السماء، إلا أنها لم تكن بسطوتها المعتادة، كانت سحبا دكناء، وهي غير معتادة، كانت السحب كثيفة بأشكال عجيبة، وهبت ريح شديدة أطاحت بحواف الكثبان الرملية الناعمة، استرعى انتباهي ظهور شكل غريب على قمة تل رملي مرتفع، فسألت هل هي حركة لحيوان؟ هل هي الناقة الشاردة؟ وعندما دققت النظر وجدت أن الحركة تنتقل إلى أعلى التل وإلى حافته الجانبية، كانت الحافة تتحرك حركة طفيفة متموجة رقراقة إلى الأمام باتجاهي، مثل حافة موجة تتقدم ببطء، ثم زحفت عتمة حمراء وغطت صفحة السماء، كأنها قادمة من خلف الكثيب المواجه لي، وأصبح الكثيب في تلك العتمة الحمراء بلا ملامح ولا معالم، بدا كأنه حجاب قد أسدل عليه، وامتدت العتمة الحمراء بسرعة وحلت على كل المرئيات من حولي، هبت على وجهي دفقة قوية من رياح محملة بحبات الرمال، ودارت من حولي في دوامة شديدة، ثم راحت الرياح تهدر بعنف، من كل الاتجاهات، تكنس وجه الوادي الرملي في هبات عاتية... وخلال دقائق أظلمت السماء وتحولت إلى لون بني مثل صدأ الحديد في عتامته، وامتلأ الجو بدوامات من الرمال الدقيقة، علقت في الجو مثل ضباب أحمر، كانت العاصفة قادمة، كل ما رأيته مقدمتها المنذرة»[1]، هذا الوصف السردي العجيب استوحاه الكاتب من وحي الطريق إلى الحج وما يحدث فيه من متغيرات ومشاهدات بعضها يكون جديدًا عليه.

"...كانت هذه هي البداية فحسب، وما حدث بعد ذلك كان أسوأ مخاوفه، فقد سقط من على ظهر الناقة ولفحته الرمال الهائجة موجة بعد موجة، وهو يصارع ويحاول التماسك والاحتماء بالناقة، ولف العباءة على وجهه، وما أن انتهت العاصفة حتى وجد نفسه شبه مدفون في الرمال هو وناقته، فما كان عليه إلا أن نزع نفسه، وراح يقدر حجم الخسائر في بدنه ومؤونته، ثم يشرح ما حدث بعد ذلك فيقول: «من أول نظرة لم يبد أن العاصفة قد تسببت في أي

(١) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص ٦٢-٦٣.

أضرار باستثناء الرمال التي ملأت فمي وأنفي وأذني، وفقدان قربة الماء التي كانت معلقة برحل الناقة، ولكن سرعان ما اكتشفت خطأ تقديراتي الأولى للخسائر.. لقد تغير شكل كل ما كان يحيط بي من كثبان قبل العاصفة، وانمحت تماما آثار خطوات ناقتي على الرمال، وكذلك آثار خطوات ناقة زيد (رفيقه في الرحلة) التي كنت أسعى خلفها. اكتشفت أنني في أرض بكر جديدة، بمعالم وتضاريس جديدة، وبلا أي آثار على سطحها»[1].

ويواصل الكاتب رصده للمواقف التي تمر به متذكرًا بكل هلعٍ وغرابة مفاجآت الطريق: «...كانت هذه هي البداية للدخول في التيه والحيرة في الفضاء الواسع الممتد".

ويمضي قائلا: «بدت كل حياتي وكأنها ماض سحيق البعد، أصبح كل شيء ماضيا، لا يوجد حاضر، لا يوجد إلا عطش، وحر لافح وعذاب، أمضيت حتى الآن ثلاثة أيام بلا قطرة ماء، وخمسة أيام من آخر مرة ارتوت فيها الناقة. قد تتحمل العطش يوما آخر، أو يومين، أما أنا فلا يمكنني الاحتمال أكثر من ذلك، ربما يصيبني الجنون قبل الموت، وقعت آلام بدني شراك الرعب الذي ألم بعقلي، كان كل منهما يصب في الآخر وينميه، ذبول وتمزق، أردت أن أستريح، إلا أنني كنت على يقين أنني لو استرحت الآن فلن أنهض بعد ذلك أبدا، جررت أقدامي المتثاقلة وركبت الناقة، أجبرتها بالضرب على النهوض، أوشكت على السقوط من فوق السرج حين مالت إلى الأمام وهي تنهض على ساقيها الخلفيتين، وكدت أسقط للخلف حين نهضت على قائميها الأماميين، تحركت الناقة بتثاقل باتجاه الغرب المنشود، يا للسخرية ما الذي يعنيه «الغرب المنشود» في هذا البحر المخادع المتماوج من الرمال؟ إلا أنني كنت أتوق للحياة. هكذا مضيت متهالكا»[2].

لم يكن هذا كل ما عاناه محمد أسد، بل تكتمل المأساة بعدم قدرته –في هذه الظروف العصيبة– على التماسك فوق ظهر الناقة، فسقط عنها بعد مدة قصيرة، ولم يعد قادرا على تكرار محاولة الركوب، بركت الناقة بجواره دون حراك، فأخذ يجر جسده المتثاقل ليستظل بجسمها، وقد أخذ منه الإعياء والجهد كل مبلغ، فلا حراك به بعد الآن.

ويمضي محمد أسد في تعبيره عن تلك المأساة الإنسانية في كلمات تذيب القلب، فيقول: «هبت على عقلي الضبابي وبرزت من بينها خمس طلقات موجودة في بندقيتي مع فكرة غائمة

(١) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص ٦٣.

(٢) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص ٦٨.

عن النهاية السريعة لآلامي التي يمكن تجنبها بضغطة على زنادها.. همس هاتف في داخلي: أسرع، تناول البندقية قبل أن تفقد القدرة نهائيا على تحريك يدك، ثم شعرت بشفتي تنفرجان وتتمتمان بكلمات من دون صوت، كلمات تأتي من حشايا وأعماق ميتة في جوانب عقلي: لبلونكم.. سنبلوكم.. اكتسبت الكلمات التي كانت غامضة شكلا وصوتا، وتدفقت في شكل ومعنى.. في آية من آيات القرآن الكريم، راحت تترى على شفتي وفي أعماقي: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧][1].

يقول أسد: «أدركت أن هناك بشرا على مسافة ما، ولكن يستحيل أن أصل إليهم، بل لم يكن بإمكاني أن أقف على قدمي من ضعفي وهزالي، ظهر الصوت أكثر رقة، كان البدو ينشدون في أثناء ترحالهم على إيقاع خطو الجمال، حاولت أن أصيح فلم يخرج من حلقي صوت. اصطدمت يدي بطريقة آلية ببندقيتي المعلقة بالرحل.. بعين خيالي رأيت الطلقات الخمس الموجودة فيها.. بجهد فائق رحت أحلها، كان حمل طلقة يماثل رفع جبل وطيد، نجحت آخر الأمر، أسندت البندقية على كعبها، وأطلقت طلقة رأسية، وراحت تعوي في الفضاء، أطلقت طلقة ثانية، وأصخت السمع. توقف الغناء الذي كان يشبه القيثار، لحظات لم يكن هناك إلا صمت عميق. فجأة ظهر فوق الكثيب رأس رجل، ثم ظهر كتفاه، ثم رجل آخر إلى جواره، نظرا إلى أسفل لحظة، ثم استدارا وصاحا بكلام ما إلى أشخاص في الجانب الآخر من الكثيب، ثم انزلق الرجل المتقدم راكضا باتجاهي»[2].

ولم يكن ذلك الرجل سوى رفيقه زيد كان يبحث عنه في تلك الصحراء منذ ثلاثة أيام فلم يهتد إليه، وما إن سمع صوت الرصاص حتى اتجه إليه، وقد استوقف ركبا من البدو الرحل ليساعده في مهمة البحث، فحملوه وقد غشي عليه، وأسعفوه، وكتب الله عزل وجل له النجاة من هذا الحادث المؤلم. لقد سطر الكاتب من (حالته) لا من (ذاكرته) تفاصيل تلك الحادثة المنهكة، لكنه أجاد الوصف والتحليل عبر عقله الباطن.

---

(١) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص ٦٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٧١.

ولم تكن تلك الحادثة المأساوية هي الوحيدة التي تعرض لها محمد أسد، بل هناك حادثة أخرى أكثر مأساوية هذه المرة، حيث فقد زوجته إلزا في موسم الحج، إثر مرض مفاجئ لم يستمر أكثر من سبعة أيام، فيذكر محمد أسد ذلك الحدث من خلال سرد رحلته بكل أسى ولوعة، وذلك بعد طوافه طواف القدوم بتسعة أيام، فيقول: «ماتت إلزا بعد ذلك بتسعة أيام.. ماتت فجأة بعد مرض لم يستغرق أسبوعا بدا المرض في أوله كأنه توعك من الجو الحار والطعام الذي لم تعتده، إلا أنه تطور ليصبح مرضًا استوائيًّا غامضًا، وقف الأطباء السوريون أمامه حائرين وعاجزين، وأطبق الظلام واليأس الخالص من حولي دفنتها في مقبرة من الرمال في مكة المكرمة، ووضعت حجرا على مدفنها، لم أشأ أن أنقش عليه أي شيء؛ فالتفكير في نقش يمثل تفكيرا في المستقبل، ولم أكن قادرا على استيعاب أي تفكير في المستقبل عند موتها»[1]. وبمثل هذا التدوين والتوثيق لأحداث مؤثرة نجد معه كتاب الرحلة يجسدون مشاعرهم ويصفون نبض الأحداث ليقبضوا على لحظات غاية في التأثير.

يقول صاحب رواء مكة: «كانت الكعبة المشرفة لقاء، لقاء مع ذاتي، كان طوافي بحثا، ولما أن فرغت سعيت، وبعد السعي انزويت جانبا أنظر إلى ما حولي وأتملى حياتي... قد كان لحجي ألا يكون إلا شعيرة، وفجأة، نعم، كماء يتفجر من الأعماق تحول رواء انبجس من داخل نفسي، كنت أشرب من ماء زمزم من كوب من ورق مقوى، وأنا أنظر إلى جموع الساعين يمشون في رفق، ثم ما يلبثون أن يهرولوا، هل لكل ما أرى من معنى ؟ وفجأة وقفت وأنا أردد.. بلى، وهل الحياة إلا تلبية لنداء الله.. له وحده لا شريك له، في كل مكان وفي كل زمان.. نعم كنت أردد النداء في لحظة معينة، وفي كل مكان، ومشيت لخطوات وأنا أردد بالفرنسية ولا أدري لِمَ: أنا مسلم»[2]، نجد مثل هذا الكاتب ينشغل بترسيخ المشاعر والأحداث من خلال انعكاس المناظر على روحه، وهذا الوصف العجيب للأحداث فيه عمق معرفيّ لكنَّ المداد الذي سطرها ممزوجٌ بروح متوثبة لمعانقة نور هذه الحياة المفعمة بالمواقف المتباينة المتلاحقة. ومن هنا نجد التساؤلات عند كاتب الرحلة بانية بالقدر الذي يمكن أن تحيله من مجرد كاتب مدون للرحلة وسارد راوٍ لأحداثها إلى جزء من تأريخ مكة.

---

(١) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص ٤٩٣.

(٢) رواء مكة ص ٩٠.

هـ - التأملات والخواطر

إن السفر إلى مكة -كما أشرنا من قبل- ليس كالسفر السياحي أو التنزه في أي بلد من البلدان، إنه سفر عظيم لمكان مقدس كريم يتوشح بالوجدان الديني ويفوح منه العبق التاريخي، فيه عمق المشاعر وصدق الأحاسيس، ولذلك نجد كتاب الرحلة يرصدون أدق تفاصيل حياتهم في مكة، ليس ذلك فحسب بل هناك محاولات عدة للتأمل في كل شيء ومحاولة فلسفته، أو ربطه بالوجدان الديني، حتى لا يمكن أن يخطر على بال أحد أنه سيكون مجالا للتأمل، ولننظر إلى هذا الموقف الذي يقصه عبد السميع الأنيس، حيث ينظر إلى جبال مكة ويتفكر في الحكمة من كون مكة هي هذا الوادي المقفر الذي لا زرع فيه، وبعد أن يذكر بعض الحكم «حدثني صديق في مكة عن رجل اشترى أرضا في ضاحية من ضواحي مكة، وأنفق مالا كثير في زراعتها لتكون محلا للاستجمام والراحة، فلم تفلح مساعيه في ذلك، وبينما كان يتحدث يوما عن تجربته أمام أحد معارفه من أهل العلم قال له ألم تقرأ قول الله تعالى: (غير ذي زرع) (إبراهيم: ٣٧)، قال: فكأنني أسمع هذه الآية لأول مرة»[١]. إنه رصد لميزان التحولات التاريخية التي تمثل معاني مفعمة بالعمق الديني الذي يشع من وحي مكة ودلالاتها.

ويتابع حديثه فيقول: «اشتريت رمانا من محل في حي الحجون، فسألت البائع: من أين هذا الرمان؟ فقال: من اليمن. وحضرنا عند صديق من أهل مكة فقدم لنا أنواع الحلويات والفاكهة من بلدان مختلفة، فقلت ما السر في قوله تعالى على لسان إبراهيم: (إبراهيم: ٣٧)، فلماذا أسكن إبراهيم أهله بواد غير ذي زرع»[٢]. لم يكن كاتب الرحلة ساردًا فحسب، بل كان مفكرًا محاولًا الربط بين الأحداث والمدلولات.

ومما رصده الكاتب أنه ربما يتعلم درسا بليغًا من عمال النظافة في المسجد الحرام حيث شاهدهم في المسجد الحرام وقد تعلم منهم درسًا عظيمًا، يقول: «شاهدتهم في الحرم وهم يتراكضون في أداء مهامهم بهمة ونشاط، تعلو وجوههم البسمة، ويملأ قلوبهم الفرح، وذلك لأن باعثهم في عملهم المحبة، فقلت في نفسي: شتان بين العبادة التي تؤدى بباعث المحبة، وبين العبادة الخالية منها؛ العبادة التي تؤدى بباعث المحبة تؤدى بفرح ونشاط، والعبادة الخالية منها

(١) خواطر ومشاهدات في رحلة الحج، عبد السميع محمد الأنيس، ص ١٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥-١٦.

ظاهر فيها التكاسل والملل»[1]، كل المعاني المتبادرة في ذهن الكاتب معانٍ قائمة على تعظيم المكان والزمان واستلهام القيّم الإنسانية التي تأثرت بهذه الروحانية المشعة.

وفي ذلك رصد تحليلي للمسافة بين المعنى الفلسفي والواقع النفسي، تحليل يقوم على التأكيد على أن الارتياح النفسي الذي يخلقه الجو الديني النقي يمثل الدافع الأول، بل هو الوازع الحقيقي المنظم لسيرورة عمله والموثق لمسار أمله.

المبحث الثالث : المواقف الطريفة لكتاب الرحلات

تصادف الزائر من كتاب الرحلات إلى مكة مواقف طريفة؛ ومن ثم فهو ينقلها بقلمه الأدبي مثلما فعل الكاتب الساخر عبد القادر المازني، الذي سرد مجموعة من المواقف الطريفة التي حدثت له في مكة، ومن ذلك أنه فقد عصاه في الطريق، فعطلت مسير الحجيج ساعة كاملة فلا أحد يريد التقاطها، ولا تجاوزها حتى جاءت الشرطة والتقطتها، فيقول: «سيذكرني الحجاز دائما بأن عصاي قطعت الطريق بين جدة ومكة ساعة كاملة لا تنقص دقيقة بل ولا ثانية، وردت الناس من الجانبين ووقفتهم صفين من الناحيتين، متقابلين على أقدامهم، إلا من شاء أن يضرب في طريق آخر، ويسير على نهج جديد»[2]. نجد ما كتبه المازني هنا رصدًا لنبض اللحظات العابرة والتقاطًا لأنفاس الأحداث الصغيرة، لكنها تلك الأحداث التي تخلق موقفًا مؤثرًا دون شك، والمازني يسرد الأحداث بطريقته الساخرة، كيف تعطلت بهم السيارة، وفقد العصا في تلك الآونة، وما جره ذلك من مواقف ودعابات مع رجل الشرطة، فيقول: «وبينما نحن نتحادث، دعي مدير الشرطة أو لا أدري من هو إلى التليفون، فاستأذن وذهب ثم عاد ليسأل: هل لأحدكم عصا؟ فقلت: نعم، لي عصا. ولكنها والله في السيارة تركتها فيها، لأنني لا أدري هل يجوز أو لا يجوز أن يحمل المحرم عصا. فقال: ما أوصافها؟ قلت: وما شأنك أنت بالله. هي عصا والسلام. قال: لا لا لا، لقد وجدت عصا في الطريق قرب (الرغامة) فقطعت على الناس السبيل، فضحكت وقلت: أؤكد لك أن عصاي تحترم القانون، ولا تخرج عن النظام، ولا تعرف قطع الطريق! فلم يجب حتى بابتسامة، وضاعت عليّ النكتة في هذا البلد الجاد، وقال ابحث عنها من فضلك، فإن الطريق مقطوع، ولا أحد يروح ولا أحد يغدو، فهرولت إلى السيارة فلم أجد العصا، وقلت له: هي عصاي قاطعة الطريق، فاسمح لي أن أعتذر بالنيابة عنها»، رغم امتلاء روح الكاتب بهذه

(١) المصد السابق، ص ٣٢.

(٢) إبراهيم عبد القادر المازني، الرحلة إلى الحجاز، ص ٩.

الأحاسيس الواقعية وما يمثله المكان من هيبة وقيمة إلا أن الكاتب كغيره من الناس يمر بمواقف تجسد القيم الحضارية والإنسانية تلك التي تقوم على المفارقات والمصادفات المثيرة.

مضى المازني يسرد بقية التفاصيل من خلال هذه اللغة الأدبية اللطيفة، ويطلب من قائد الشرطة أن يردها إلى جدة، لعلهم يأخذونها في طريق العودة، ويختم هذه القصة بقوله: «ولست مبالغا فيما رويت عن عصاي وما صنعت، فقد كنا في الطريق إذا بلغنا محطة، واحتاج السائق إلى ماء يبرد به جوف السيارة الذي يغلي، يصيح بأحد الواقفين هات ماء فلا يتزحزح، ولا يدنو منا بل يقول: وهو واقف في مكانه: تفضل. فينزل السائق ويجيء منه بما يريد، وقد سألنا عن سر هذه الجفوة وقلة الذوق، فقيل لنا: بل هو الخوف من أن يدنو الغريب من السيارة، فيتفق لسوء الحظ أن يضيع شيء من الأدوات أو مما تحمل السيارة، فيتهم الرجل بالسرقة، وجزاء السارق هنا قطع اليد»، لم تكن هذه الطريقة في الكتابة عبثية، بل هي تمثل صورة وصفية لأنماط الشخصيات التي كانت تخلق الأحداث في شوارع مكة، وهي في الآن ذاته تمثل قدرة الكاتب على نقل الأحداث بصورة معبرة عن الشخصيات من خلال أدوات قادرة على تجسيد المواقف.

ومن المواقف الأخرى الطريفة أنه مر على الدكاكين في قدومه إلى مكة فلم يجد فيها أحدا مع كونها مشرعة الأبواب: «ولم يكن في الدكاكين أحد؛ لأنه كان وقت الصلاة، وكان الطريق غاصا بالأطفال يمشون وراءنا، ويحفون بنا في خرق ممزقة ومراقع لا تكاد تستر شيئًا»[1]. وفي مثل هذا تجسيد للقيم والمبادئ التي يلتزم بها ذلك المكان وشخوصه، حيث ينتظمون عقدا من الأخلاقيات الإسلامية.

ومن الطرائف في رحلات مكة ما سرده الكاتب علي الطنطاوي عن التيه وهم في طريقهم إلى جبل حراء من أجل رؤية الغار الذي كان يتعبد فيه النبي صلى الله عليه وسلم، حيث استعانوا بدليل ادعى معرفته الجيدة بالطريق، ولكن ظهر أنه كان جاهلا بدروبها، فما كان منه إلا الدوران المنهك بالسيارة في جو قائظ، ويصف ما حدث فيقول: «ومشى بنا في طريق عرفات، فلما خرجنا من مكة، وجاورنا آخر بيوتها، عطف بنا في ذات اليسار، فمشى بنا في فلاة لا جادة فيها، حتى أبعد بنا وأطال السير، والجبل في مكانه نراه تارة وتخفيه عنا الجبال القريبة تارات، ما دنونا منه ولا دنا منا، وما كان دولاب السيارة يدور بنا دورة إلا صعدت نشزا، أو هبطت حفرة، أو وطئت حجرا، فلا تزال تهتز بنا حتى خضتنا مخض الحليب. وكانت ساعة الزوال، والشمس

(١) إبراهيم عبد القادر المازني، الرحلة إلى الحجاز ص١١-١٢.

في قبة السماء، وكأن وهجها لفح التنور المشتعل لمن ينظر فيه، والصحراء حولنا تتضرم فيحا كأن حجارتها جمرات»[١].

وقد تبدو هذه الخلجات الكتابية نفثات مصدور مميزة، لكنها في الآن ذاته تمثلات تاريخية ذات مدلولات اجتماعية عميقة، وهذه إحدى مهام أدب الرحلة بل هي من أهم تجلياتها.

نجد الكاتب الحاج المغربي عبد الله حمودي يدخل مطعما باكستانيًا ليتناول طعامًا يسد به جوعه بعد نصب طويل من السفر والطواف والسعي، وكان المطعم مزدحما، وبعد طول انتظار أحضر له النادل طبق شوربة بالفلفل الحار جعله يرى أن المكان كله تحول إلى قطعة من جهنم، فيصف ذلك بكل روح طريفة لطيفة «انتظرنا في الطابور من أجل مرقة من الخضر مع قليل من الأرز يرافق دجاجة مشوية على الفحم، ألهب المرق شفتي وحلقي، كان ثخينا دسما أحمر، مركزا خليطا من التوابل والفلفل، حرارة المطابخ والمشاوي أصبحت خانقة، هذا الغداء انتهى بالقضاء عليّ، فيما كنت أجرجر دائما حمَّاي منذ الانطلاق من المدينة، غادرت سريعا هذا المكان الجهنمي، وبعد لحظات مشيت مترنحا في السلم، وصلت إلى الغرفة المشتركة لأتهاوى على قطعتين من الإسفنج»[٢].

وهذا الحاج فيلبي يجد جمله معطوبًا وسيؤخّره عن اللحاق بركب الملك عبد العزيز، فيأتي إلى عرفات بسيارة وزير المالية حيث كان مقررًا له أن يركب مع الملك عبدالعزيز «...ولكن، لعلة ما نتجت عن تأخر جملي، فإني قمت بالرحلة إلى منى في سيارة وزير المالية، وبذلك أتيحت لي فرصة رؤية الطريق الجديد المقرر لكل السيارات لإخلاء الطريق الرئيس للجمال والمشاة، ولم يزل الجمل النجدي نافرًا من هدير السيارات بينما كان أخوه الحجازي قد وطّن نفسه عليها منذ فترة طويلة»[٣]. تصوير طريف لكنه كان يقوم على رصد كل الصور المتاحة ضمن المشاهدات التي عاشها كاتب الرحلة وتأثر بها.

ويسرد محمد أسد موقفا طريفا في طريقه إلى مكة، لم يبق بينه وبينها إلا مسيرة نصف يوم.. يقول: «ارتفع صوت أقدام جمل يعدو من بين طنين صمت الصحراء الساكن، أتى راكب

(١) علي الطنطاوي، من نفحات الحرم ص ١٨.

(٢) حكاية حاج، موسم في مكة، عبد الله حمودي، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، ص ١٤٠، ط١، دار الساقي، بيروت لبنان ٢٠١٠ م.

(٣) حاج في الجزيرة العربية، مرجع سابق، ص ٢٧.

وحيد وأحزمة الرحل محلولة تتطاير من حوله، وعباءته تطير خلفه وهو خارج من الظلام، وتقدم باتجاه نارنا، وأوقف جمله بطريقة مفاجئة، وقفز من فوقه من قبل أن ينيخه. وبعد (السلام عليكم) و(وعليكم السلام) جلس محملقا دون أن ينطق كلمة أخرى، ثم قام وفك رحل الجمل، وكوم خرجه إلى جانب النار، ثم جلس على الأرض، وهو في صمت بوجه محتقن الملامح، قال زيد الذي اتضح أنه يعرف الرجل: وهبك الله عمرا يا أبا سعيد. ظل أبو سعيد صامتا... كان أبو سعيد فاحم السواد، وكشفت شفتاه الغليظتان وشعره الأجعد الذي لمَّ أطرافه الطويلة في خصلتين خلفه عن أصله الإفريقي، كان يرتدي ملابس ثمينة، وكان خنجره –وربما كان هدية من الملك– مطليا بالذهب، وكانت ناقته من السلالات غالية الثمن، فقد كان لونها عسليا، من سلالة شمالية رفيعة الأطراف، دقيقة الرأس، بكتفين قويين، وكفلين ضامرين»[1].

بعد هذه المفاجأة المباغتة، لم يكن هناك بد من فك عقدة لسان هذا الطارق الليلي، وما سر المجيء على هذه الحال في هذا الليل البهيم، فيقول محمد أسد: «سأله زيد وقد حيره صمته الذي طال: ماذا جرى يا أبا سعيد؟ ألا تريد الحديث مع أصحابك؟ هل ركبك جن؟ همس أبو سعيد: إنها نورة، بعد أن حلَّت القهوة الساخنة عقدة لسانه، حكى لنا عن نورة، كانت فتاة نجدية من مدينة الرس، كان قد رآها خفية من فوق سور وهي تجلب الماء مع النساء، قال: شعرت وأنا أراها أن قطعة من جمر ملتهبة سقطت في قلبي، عشقتها، إلا أن أباها لم يرض أن يزوجني إياها، راعي الخنازير. قال: إن ابنته تخاف عندما تراني، عرضت عليه مهرا كبيرا، وقطعة من أرضي، وأصر على الرفض، ثم زوجها بابن عمها»[2].

وما كان محمد أسد –وهو الأديب المرهف الحس– أن يترك هذا الموقف دون أن يحلل تصرفات هذا العاشق المحروم ويصفها كأنك تراه فيقول: «أضاءت النار المشتعلة جوانب وجهه الأسود القوي، وبدا تراقص ضوء النار على وجهه كمن يعاني عذاب الجحيم، لم يحتمل أن يجلس أكبر من ذلك، نهض واقفا، شغل نفسه لحظات بالرحل، ثم عاد قرب النار، وفجأة ركض في الظلام، كنا نسمعه وهو يجري في دائرة واسعة حول المكان الذي كنا نجلس به، يصيح ويصيح: (نار نورة تحرقني، نار نورة تحرق صدري) ثم يصيح منتحبا: نورة.. نورة. اقترب من النار من جديد، وراح يعدو حولها في دائرة، وقفطانه يتطاير مثل شبح ليلي على ضوء النار المتراقص،

(١) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص ٤٧٣، ٤٧٤.

(٢) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص ٤٧٤.

والظلام المحيط، هل فقد عقله؟ لا أظن ذلك. ربما خرجت من خلال عقله البدائي الأول انفعالات الأجداد الأفريقيين الذين كانوا يعيشون بين الأعشاب، ذكريات من عاشوا على ذكر العفاريت والألغاز والغموض في الغابات الإفريقية، في وقت قريب من الزمن الذي نزلت فيه الومضة الإلهية على وعي البشر»[1]، فلم يكتف الكاتب برصد الصور المتحركة والأحداث المتحولة والمفارقات الغريبة، بل كان جزءًا منها وهو يبرر لبعضها أو يحكم على أحدهم أو يعتذر دون الآخر وكأنه شريك رئيس في الموقف.

الخاتمة

لاحظنا خلال سيرورة البحث أن العيّنة التي اشتغلنا بها، تقاطعت على المستوى الدّلالي (القصة)، فكانت تقف مُحبة للمكان ومُقدِّسة أركانه وشعائره، وتصِف الرؤية الأولى للبيت المعمور وما يحيط به من حجيج وآثارٍ نبوية شريفة، ووقوف بعرفة وسعي بين الصفا والمروة، وأحداث شتى تراوحت بين البهجة والألم والنوادر الطريفة.

وساعدتنا القراءة السردية للنّصوص السّيرية عبر الرّحلات إلى مكة المكرمة في التعرف على مجموعة من الوقائع السردية، التي –مع واقعيتها بحكم المنطق السّيري– لا تعدم إمكان التخييل الأدبي فيها، فكل مسرود واقعي يتسرّبُ إليه المتخيّل بحكم عنصر الحكي ومنطق الكتابة، بل وأحيانًا اتشاحها بالقيم الروحانية التي تجعل من اليباس اخضرارا وتحيل الجفاف رواءً، فإن الكاتب عن رحلاته في مكة يستدعي معه التاريخ وترتسم في داخله الجغرافيا لتشتد روحه طهرًا ونفسه نقاءً؛ لذلك لاحظنا أن النزوع إلى القراءة الدّلالية لأدبيات الرحلة، وعدم التركيز على البنيات الدّالية (الخطاب)، دليل على قداسة المكان والاكتفاء بمدلوله القيمي على المستويات الدّينية والتاريخية للمكان موضوع الحكي.

وخلاصة هذه الدراسة؛ نرى أن يهتم الباحثون بالأثر الذي تحدثه كتابات أدب الرحلة، وتوثيق المواقف التي مروا بها ضمن القيم السردية التي يعنى بها المكون السردي، على أن ينتبه إلى أن مكة مادة الحكي لها سر مختلف عن جميع الأمكنة لما تستدعي معه من قيم تأريخية وذاكرة معطرة بسيرة نبوية خالدة تهيمن على الروح فتبعث فيها الشوق إلى لقائه، وتحتل الوجدان فتمنحه أفقًا مشرقًا من الأمل الباقي والتفاؤل الباني.

---

(١) محمد أسد، الطريق إلى مكة، ص ٤٧٤، ٤٧٥.

لائحة المصادر والمراجع

- إبراهيم بن عبد الله السماري، ثقافة مكة المكرمة في أدب الرحلات الحجازية، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ.
- إبراهيم عبد القادر المازني، الرحلة إلى الحجاز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د.ط سنة ٢٠١٢.
- آرثر جون وافل، رحلة الحاج المعاصر إلى مكة عام ١٩٠٨م، ترجمة، ريم بو زين الدّين، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط١/٢٠١١م.
- أسامة بن محمد الرسي الحسيني، مكة وشعابها، وزارة الثقافة والإعلام، المملكة العربية السعودية، د.ط سنة ١٤٣٩ه-٢٠١٨م.
- عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، أرض المعجزات (رحلة في جزيرة العرب)، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- عبد السميع محمد الأنيس، خواطر ومشاهدات في رحلة الحج، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري في دبي، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
- عبد السميع محمد الأنيس، خواطر ومشاهدات في رحلة الحج، دائرة الشؤون الإسلامية، ط١/٢٠١٣م.
- عبد الله حمودي، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، حكاية حاج، موسم في مكة، دار الساقي، بيروت لبنان ط١/٢٠١٠م.
- على الطنطاوي، من نفحات الحرم، دار الفكر، دمشق د.ط سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م.
- محمد أسد، الطريق إلى مكة، تر. رفعت السيد علي، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، د.ط سنة ١٤٢٥ه.
- محمد بن عبد الله الغبان، فضائل مكة الواردة في السنة، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١/١٤٢١هـ.
- محمد حسين هيكل، في منزل الوحي، دار المعارف، ط٨/ د.ت.
- محمود محمد حمو، مكة المكرمة تاريخ ومعالم، مكتبة الملك فهد، ط٥/١٤٣٢هـ.
- هاري سانت جون فيلبي (عبد الله فيلبي)، حاج في الجزيرة العربية، ترجمة عبد القادر محمود عبد الله، ط١، مكتبة العبيكان ١٤٢٥هـ.